التاريخ الغريب للغباء الانساني

بقلم
كولن ولسن

ترجمة
مجاهد عبدالمنعم مجاهد

عندما مات عالم النفس التربوي سير سيرل بيرت عام ١٩٧١ وهو في الثامنة والثمانين كان واحداً من أكثر الرجال تقديراً في هذا الحقل من التخصص . وبعد خمس سنوات تحطمت تلك الشهرة فما حدث هو بكل بساطة أن بيرت ضُبط متلبساً بالغشّ . لقد كان من كبار الداعين لرأي يذهب إلى أننا نرث الذكاء من آبائنا ، وأن تربيتنا لا شأن لها بالذكاء إلّا في أضيق نطاق . وهذه النتيجة التي لا ضرر منها أصبحت موضع جدل مرير عندما طُرح قول يذهب إلى أن السود أدنى من البيض من الناحية الوراثية . وقد جرى التنديد بالأستاذ وليم شوكلي في أمريكا والأستاذ هانز أيزنك في انجلترا باعتبارهما من أصحاب النزعة العنصرية ؛ وقد تلقى أيزنك بالفعل هجمات من الطلبة اليساريين في احدى محاضراته . وقد دافع الأستاذان ـ كما يجب أن يدافع العلماء ـ فقالا إن العلم ليس سياسياً وأن آراءهما صحيحة سواء لاءمت اليساريين أم لا .

ثم مات بيرت ، ولاحظ زميلان له في وقت واحد أن في شكله شيئاً خاطئاً ، ومن أبرز أبحاثه بحث خاص بالتوائم . يقول بيرت إن التوأمين عندما يشبّان معاً يميل ذكاؤهما إلى أن يكون متماثلاً عندهما ـ وهي علاقة نسبتها أكثر من ٩ . ولو كان (المؤمنون بالبيئة) على حق لكان يجب أن يكون هناك اختلاف واسع وكبير لو انفصل التوأمان وتربى واحد في بيئة أدنى من البيئة التي يتربى فيها الآخر . ويقول بيرت إن هذا لا يحدث ؛ فهناك فارق (بالفعل) لكنه ضئيل يتراوح ما بين ٩ و٧٧ .

غير أن أحد زملاء بيرت وجد عدم اتساق بارزاً . فقد ذكر بيرت في أبحاث مختلفة عدداً مختلفاً من التوائم ـ بين واحد وعشرين وثلاثة وثلاثين ـ غير أن معدل ارتباط الذكاء كان (متماثلاً) بلغ ٧٧١ وبالنسبة للتوائم التي تتربى منفصلة و٩٩٤ وبالنسبة للتوائم التي تتربى معاً . (وذلك) النوع من الدقة مستحيل مع عينة منوعة ما لم يكن بيرت قد بدأ بالنتيجة ثم اشتغل بالتراجع للوراء . وبمجرد سطوع مثل هذا الشك كان هناك المزيد من الأبحاث والفحص ، وظهر أن بيرت قد اخترع اسمي زميلين المفروض انهما تعاونا معه في أبحاثه العلمية .

ولكن لماذا يجازف عالم مشهور ، يحظى بتقدير شديد ، بكل سمعته بصدد عمل مهمل من الخداع؟ في خطاب تبرّع به الأستاذ أيزنك وبعث به إلى صحيفة من صحف يوم الأحد ، قال إن الجواب يكمن في الإهمال لا في عدم الأمانة وأعاد التأكيد بأن العالم مشغول (بالوقائع) لا الآراء والابتسارات . غير أن صحيفة أخرى اقتربت أكثر من الرأي العام عندما علقت بقولها إن الرجال العظام المسنين يصبحون أسارى نظرياتهم وهم يشيخون ، وهم يدافعون عن عملهم بقوة الشخصية أكثر مما يدافعون بالحجة العلمية . بايجاز إن (الوقائع) تصبح أقل أهمية عن المكانة الشخصية .

ولكن لماذا أورد هذه القصة التخديرية الحزينة في كتاب عن (الخوارق) ؟

لأنها تمسّ مشكلة أساسية في الطبيعة الإنسانية ، وتطرح أسئلة مقلقة عن نظرة الإنسان للأحداث بما يتجاوز تجربته اليومية . إن الناس لديهم عادة عميقة للبدء (بالحقائق) التي يريدون الإيمان بها ، ثم يرتدّون للوراء ليجدوا مبررات لتأييدها .

وأنا لا أوحي الآن ـ بما يقوله كل مجنون ـ بأن كل العلماء مشتركون في مؤامرة لمنع (الحقائق) المريرة . لقد تدرّبت كعالم أؤمن بشدة أن معظم العلماء يبذلون جهدهم لمواجهة الحقائق كما يفهمونها . وأيزنك نفسه مثال صارخ على هذا . فبالرغم من أنه من أتباع السلوكية المتمسكين بها للغاية مع شك عميق في كل أشكال (الايمان بالخوارق) الّا أن له عقلاً مفتوحاً يسمح لميشيل وفرنسواز جوكلين أن يُغرياه لبحث احصاءاتهما عن التنجيم . وعلى عكس كل توقع ثبت أن هذه الاحصاءات لا يمكن الشك فيها . وقد أثار أيزنك الذعر بين زملائه بإقراره جهرة بما وجده وأقر بأن التنجيم له صدقُه .

غير أن المشكلة أصبحت أعمق من هذا . إننا نكون سُذّجاً تماماً إذا تصوّرنا أن بيرت (قد قرر بوعي) ألا يكون أميناً . فلو كان يستهدف طبخ الأرقام كما يريد لكان اتخذ مزيداً من الاحتياط ليجعلها أكثر اقناعاً . وما حدث على وجه اليقين هو أنه أصبح مقتنعاً تماماً بدقة مكتشفاته الأولى وقام على نحو غير

شعوري (بأقلمة) الأرقام الأخيرة للتمشي مع ما راه كنتيجة محتمة[1]. وإذا لاحظ أي تعارض بسيط فإنه يستبعده على وجه الاحتمال باعتباره (خطأ تجريبياً) وكذلك كان أيزنك على صواب . لقد (كان) نوعاً من (الاهمال) ـ لكنه إهمال موجهٌ لزيادة مكانته الشخصية للبرهنة على أنه يعرف (تماماً) .

(هذه) هي المشكلة التي يفضّل معظم العلماء تجاهلها : الشره الشديد لرغبة الإنسان في الشهرة والتقدير . ولقد أشار الراحل أبراهام ماسلو إلى أن الإنسان يتأرجح تحت ثقل رغبات ثلاث أساسية : الأمن والجنس والاحترام الذاتي . وكلّها ـ الثلاث ـ تنتج سلوكاً لا عقلانياً ؛ غير أن الرغبة في التقدير تسبب المزيد من الدمار عن الرغبتين الأخريين مجتمعتين . وفي أسوأ حالاتها فانها تستطيع أن تنتج شكلاً من الجنون مصاحباً بوساوس . والعلماء بالرغم من مثلهم عن الأمانة والنزاهة معرضون لهذه الرغبة كأي انسان آخر .

ويدرك الكتاب الساخرون والفلاسفة دائماً مدى سعي الانسان لكي يكون على حق . بل إن ألفريد أدلر صاغ نظرية عن (سيكولوجيا التقدير الذاتي) على أساس أن الدافع الأكبر للإنسان هو إرادة القوة . غير أن أول من أدرك التضمينات المقلقة لهذا النقص الغريب في الطبيعة الإنسانية لم يكن فيلسوفاً ولا عالم نفس ، بل لقد كان مؤلف رواية من روايات الخيال العلمي هو أ . إ . فان فوغت .

في سنوات ١٩٥٠ أصبح فان فوغت مهتماً بما يمكن أن يسمى الآن (حظيرة الذكر الشعوبية) وبدأ يدرس أمثلة عنها في حالات الطلاق . لقد لاحظ وجود نمط من الناس يطلب نمطاً من السلوك لنفسه ونمطاً آخر للسلوك لزوجته . ولاح له أنه قد وضع يده على جانب في الطبيعة الإنسانية أغفله علم النفس التقليدي .

والصفة الرئيسية لهذا النمط من الذكور هو الشعور بالحَصَر بأنه (على صواب) . ولا يوجد أي ظرف يمكن أن يعترف تحته بأنه قد يكون على خطأ . فإذا كان هناك ما يجعله قلقاً ومتقلباً رأساً على عقب ، فإنه يبحث عن شخص يلومه ويصب غضبه وانفعاله على أقرب شخص إليه، وخاصة إذا حدث وكان عضواً في اسرته . وهو لا يعترف اطلاقاً أنه يمكن أن يُوَجّه إليه اللوم . إنه مع الغرباء أو الزملاء في العمل يبدو عادة إنساناً معقولاً كاملاً . وعندما يكون الأمر خاصاً بأسرته فإنه يصبح هتلراً صغيراً . وهو معرض للغيرة المرضية ويمكن أن يتصرف مثل معظم الآباء الفكتوريين المتزمتين. ومع هذا فإنه في الأغلب يكون مغازلاً ومُغْوِياً ؛ والغزو الجنسي من أهم مصادر التقدير الذاتي عنده . وعنده عادة الانغماس في كل انفعال دون أن يعبأ بما في المسألة من محاسن أو مضار . وإذا ووجه بالنقد فإنه يصبح عنيفاً . ولقد أسماه فان فوغت (رجل الصواب) أو الذكر العنيف .

ومثل هذا السلوك غالباً ما يفضي إلى نزاع في الأسرة وإلى طلاق . لقد انطلق رجل صواب إلى العمل خمس مرات مستخدماً نقوداً ورثتها زوجته ، وفي كل مرة يفلس . وعندما انطلقت زوجته للعمل لمعاونة الأسرة تحدث الزوج عن الطلاق وطلب من الأطفال أن يعيشوا معه ، ولدهشته رفضوا . وعندها جمعهم وأخبرهم أن امهم لم تكن عذراء عندما تزوجها منذ عشرين عاماً. وقد صُعقت زوجته لهذه الخيانة ، وأشارت إلى أنه (هو) كانت له أمور نسائية (منذ) تزوجا . وهنا انتابه الغضب الشديد مؤكداً أنه ليس لها حق أن تكشف ضعفه للأولاد .

هذا النوع من الأمور يبدو فكهاً ، ولكن أي إنسان يعيش في منزل فيه ذكر عنيف (أو أنثى عنيفة) يعرف أن المسألة يمكن أن تكون مأساة ممتدة . وهي محاولة عقيمة لإرغام الآخرين على التشكّل حسب أحواله العقلية .

وكل البشر عندهم ميل لحلم اليقظة والانغمار في الخيالات التي تتملق الأنا . وإنسان الصواب يحاول أن ينفّذ خيالاته ويستخدم سلطته لإرغام الآخرين على تعزيز التمثيلية . واذا حدث ـ كما هو الواقع أحياناً ـ وكان له مركز سلطة ، فإنه يصبح معرضاً للفساد من جراء الانغمار الذاتي ، مثل العديدين من الطغاة والديكتاتوريين في التاريخ . وهو يستطيع أن يطلق العنان لخيالاته بأنه عليم وقدير بكل شيء ؛ وهو يعدّ أي إنسان يعارض ارادته مجرماً يستحق العقاب . لقد كان ستالين وهتلر رجليْ صواب ؛ ويحتمل كذلك ماوتسي تونج . وقبل وفاة ماو بوقت قصير تظاهر الصينيون في ميدان السلاح في بكين ضد سقوط المعتدل تنج هسياو بنج . وعندها أُلْقي القبض على الكثيرين ؛ وقد أعدموا أو سجنوا لفترات طويلة . لقد كان ماو عجوزاً ومريضاً ولكنه كان لا يزال قادراً على أن يستثار غضباً لأية علامة على الاعتراض .

غير أن الميل للعيش في عالم خيالي يمكن أن يكون سقوط رجل الصواب . لقد أقام مملكة من الخداع الذاتي ، أقام قلعة من الرمال يمكن أن تجعلها الحقيقة تنهار في أية لحظة . والخضوع التام من جانب زوجته ـ سواء كان حقيقياً أم فيه تظاهر ـ غالباً ما يكون حجر الأساس في الشطح الخيالي . ولقد اكتشف فان فوغت أن الزوجة اذا عزمت أمرها على هجر رجل الصواب فإنه ينهار انهياراً تاماً ؛ وقد يعاني من انهيار الأعصاب أو قد ينتحر .

والآن ، يؤكد فان فوغت أن انسان الصواب ليس بكل بساطة كذاباً معتاداً على الكذب . « إن لديه رغبة حارة في الصدق ، لكن قصة حياته صورة مشوّهة بشيء لا شعوري ، مما يُظهر أنه على صواب بنسبة مئة بالمئة وكل إنسان آخر

---

(١) في الحقيقة أثبت البحث التالي الذي قام به في بنسلفانيا الدكتور بول توبمان أن القصد الأساسي لبيرت صحيح (بالفعل) : الوراثة واردة أكثر مما ترد البيئة (بالفعل) (انظر: التايمز ١٣ مايو (أيار) ١٩٧٧).

مخطىء . ». ومن الأمور المليئة بالانفراق أو التناقض الظاهري أن هذه (الرغبة الحارة في الحقيقة) قد تجعل رجل الصواب عالماً أو فيلسوفاً ممتازاً . وحيث يدور اهتمامه (هو) فحسب يتشوه إدراكه للحقيقة ؛ بجانب هذا ، فإن السعي إلى المعرفة التجريدية يزوده براحة لطيفة من حَصره مع نفسه .

وها هو مثال يوضح المسألة برمّتها . لقد كان الراحل س . إ . م . جود فيلسوفاً من فلاسفة التطور وتلميذاً للفيلسوف الفرنسي برجسون والكاتب المسرحي الايرلندي شو . وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح مشهوراً كعضو في فريق الإذاعة البريطانية لاختبارات صدق العقل . وحالته كانت حالة نزق واسع المعرفة مستبد ، من النوع الذي (يجب أن يكرهه الجمهور) . وهو في حياته الخاصة كان يحب المغازلة . وذات مرة تحدث أنه لا يبدي اهتماماً بالحديث مع المرأة إلا عندما تكون راغبة في النوم معه . وواضح أن زوجته كانت تتقبل هذه (الأمور) . .

ولقد صُعق قراء صحف المساء يوم ١٢ أبريل (نيسان) عام ١٩٤٨ عندما شاهدوا العنوان الرئيسي : « تغريم الدكتور جود لركوبه القطار دون تذكرة ». ففي القطار من ووترلو إلى اكستر ، حاول أن يوفر سبعة عشر شلناً وبنساً فقال لقاطع التذاكر إنه ركب القطار من سالسبوري ، وتبين فيما بعد أن من عادته أن (يزوّغ) في ركوب القطارات . وقد أبعدته الإذاعة البريطانية عن برامجها وحطمته الفضيحة ؛ ومات بعد أربع سنوات من السرطان .

واضح أن هذه الحالة مشابهة لفضيحة بيرت ؛ ولكن بالنسبة للدكتور جود تحسن هناك بعض الاجابات . لقد ظهرت شخصيته بوضوح في كتبه ، وفي اختبار التعرف[٢]. بل حتى عناوين كتبه تكشف انشغالاته الذاتية المليئة بالحَصرَ النفسي : (كتاب جود) ، (شهادة جود) ، (اللذة في أن تكون نفسك) . ويتفق معظم الأصدقاء أنه كان سريع الغضب يمكنه أن ينخرط غاضباً لأية إهانة ـ حقيقية أو متخيلة ـ تمس كرامته . ولكن أي إرضاء تافه له يمكنه أن يتسبب في الغفران السريع . وهو شأن معظم رجال الصواب لم يكن مهتماً تماماً بشخصية الآخرين ؛ إنه يفضل أن يفرض عليهم أفكاره المفرطة في التبسيط حتى أنه يسمي كل عشيقاته باسم واحد هو مورين .

إذن لماذا يخاطر برسالته العلمية من أجل ثمن التذكرة الزهيد هذا ؟ وعندما طرح عليه أحد الأصدقاء هذا السؤال فيما بعد اعترف نادماً : « عنف الكبرياء ». غير أن هذا لا يقول لنا شيئاً . إن ما نحتاج إلى معرفته حقاً هو أن رجل الصواب ينقصه كل شعور بالأخلاق الشخصية لأنه يستطيع أن يجد دائماً ألف سبب وسبب للاعتقاد بأن ما يفعله هو صواب . إنه طفل فاسد يعتقد أن رغباته يجب أن تكون قوانين للطبيعة . ولقد كتب جود بالفعل بعض الكتب عن الفلسفة الخلقية، وليس هناك شك في أنه حيث تكون البشرية مقصودة بصفة عامة فإن إحساسه بالأخلاق دقيق وعميق . وان أي انسان يعتقد أن رجل الصواب لا يمكنه أن يكون فيلسوفاً ممتازاً عليه أن ينظر إلى مؤلفات جود ؛ فأفضلها بارعة مليئة بالفكاهة والذكاء وذات أسلوب رائع . إن عماد جود الخلقي لا ينطبق إلاّ على نفسه . وان (صوابيته) هي شيء عليه أن يعيش به كما يعيش الانسان مع المرض الطويل .

والتضمينات المقلقة حقاً لنظرية إنسان الصواب تظهر عندما نحاول أن نرسم خطاً بين الناس (غير المتزنين) مثل جود والناس اللطاف العاديين مثلنا . فمن المستحيل رسم هذا الخط . إن الحاجة للتقدير الذاتي رغبة أساسية في الطبيعة الإنسانية ، ونقصها مماثل لنقص كُرّيات الدم البيضاء في الدم . وكل الناس الأصحاء العاديين يكرهون أن يكونوا مخطئين ؛ ونحن جميعاً نشعر بالحرج عندما نخطىء و (نُشاهَد) ونحن نخطيء . والخطأ عند رجل الصواب هو أنه لم يقهر ـ اطلاقا رغبة طفولية بأن يصبح كل شيء ملكه وأن ينحني الكون لرغباته . ولكن هل يوجد أي انسان خالٍ تماماً من هذه الرغبة ؟ مثلاً ، هل يوجد إنسان لا يسبّ عندما يدق أصبعه بمطرقة ؟ أو لا يشعر بالغضب عندما ينادي على تاكسي فيتوقف على بعد عدة ياردات ويقفز فيه إنسان آخر ؟ غير أن المطرقة شيء غير حي . والشخص الآخر له حق مماثل لك في التاكسي . ومع هذا فإن الاحباط يدفع الدم بالغضب مما كان يدفع أجدادنا في العصر الحجري الحديث لأن يلجأوا إلى فؤوسهم الحجرية .

إننا نتهم جود بأنه غير مهتم أساساً بالآخرين ، ولكن هذا القول منطبق على أي منا . فمثلاً ، نحن يستحيل أن نقع في حب شخص (بتمامه) ـ إننا نقع ببساطة في حب ابتسامة لطيفة ، صوت موسيقي ، بشاشة جذّابة . وهذه المسائل تقدم أساساً لنوع من الصورة ؛ ونحن نضيف بقية الرتوش إلى الصورة بأنفسنا فنرسم الصفات الأولى من صورة ذهنية عن نوع الشخص الذي نحب أن نقع في حبه . وهناك العديدون الذين يزوجون طوال حياتهم بشخص لم (يعرفوه) مطلقاً لأنهم لا يعيشون أي حالة حقيقية للفضول عن ماهية هذا الآخر حقاً . وهناك مئات الزوجات المتزوجات من قتلة يؤكدون للبوليس بإخلاص شديد بأن زوجهم عاجز عن ايذاء ذبابة . وما لم يتطابق الشخص الآخر مع صورتنا الذهنية فإننا لا نلقي بأية أسئلة .

ويشير فان فوغت إلى أن هناك الكثير من رجال الصواب حولنا أكثر مما نعرف . فهم يعرفون كيف يخفون الأمر عن الآخرين وعن أنفسهم . والأمر نفسه ينطبق علينا . والناس الذين يلفتون نظرنا بأنهم أنانيون أو متمركزو الذات هم الاستثناءات ، ولكن بمجرد أن نعرفهم تماماً نصبح على وعي بأنه حتى الناس اللطاف يمتلئون بأوهامهم وخزعبلاتهم وتفاهاتهم . وبالنسبة لي فأنا

(٢) أنظر على سبيل المثال ما أدرجه فرنتون برسلر في (سلم العدالة).

اعترف بمنتهى الحرية أنني أستطيع أن أضبط جيوباً قذرة (اللصوابية) في شخصيتي وإن كنت أشك فيما إذا كان أصدقائي على علم بها . ونحن مثل بعض الفراشات قد تعلمنا كيف نتأقلم مع البيئة . وهذا يساعدنا على الشعور بأننا نعيش في مجتمع الناس المتزنين العاديين الذين هم على غرارنا .

ولا يحدث إلا عندما نبدأ في التقاط تضميناتها أن هذه البصيرة تصبح مقلقة تماماً . وفرويد يجعلنا ندرك أن الجنس يلعب دوراً اكبر في الحياة الإنسانية عما اهتم بأن يعترف به الفيكتوريون (بالرغم من أنه يتبين الآن أنه قد أوصل المسألة إلى حد العبث) . وانجاز فان فوغت مثير بالمثل ؛ فقد بيّن أن الأنانية يمكن أن تنتج شكلاً من الجنون المعتدل وأننا جميعاً نعاني من هذا إلى حد ما . وهذا يقوّض في التو فرضاً من فروضنا الأساسية عن الطبيعة الإنسانية : وهي أن الإنسان يمكن الاعتماد عليه إذا ما تصرف من (المصلحة الذاتية العقلية) . إن الصوابية تعلو على المصلحة الذاتية ؛ إنها تستطيع أن تجعل الإنسان أعمى عن تدمير نفسه ما لم يسبب الدمار لعدوّه ـ أو يجعله خاضعاً تحت رحمته . ونحن إنما نعيش في مجتمع كل واحد فيه يعاني ـ من الناحية العملية ـ من درجة من درجات (الصوابية) . إن العادات الطيبة والقناعات الاجتماعية قد تطورت إلى تقليل الهامش . ولكن حيث تفشل يظهر الصراع . والحكومات تصدر الانذارات وتحدد بالحرب والأمم كلها راغبة في الاتفاق على أن وفاة بضعة ملايين هو ثمن بخس لدفع إهانة .

ونحن ندرس الخوارق نجد أن كل هذه الأمور ترتبط بها . وليس هناك موضوع أثار ردود فعل متطرفة أكثر من موضوع (الخوارق) . فمعظم العلماء يشعرون بأن (المشتغلين بالخوارق) مجانين ويجب اعتقالهم ، ويردّ المشتغلون بالخوارق بأن العلماء متحاملون غير أمناء . وكلا الفريقين يتحدثان عن العقل والمنطق والبداهة ولا يؤمن أي منهما بأن الجانب الآخر يعرف معاني هذه المصطلحات التي ظهرت .

وعلى العموم ، يبدو أن العلماء في موقف أقوى ، فهم يقولون إن العلم هو بكل بساطة محاولة لفهم الكون بطرح أسئلة معقولة . إن العالم ليس معه فأس يحفر بها ؛ إنه يجلس متطلعاً إلى الواقعة أشبه بطفل صغير ـ حسب الكلمات الشهيرة التي قالها ت . هـ . هكسلي ـ ويسير وراءها حسبما تقضي به . والمتديّنون و (المؤمنون بالخوارق) هم الذين يشوهون الوقائع لتتمشى مع تفكيرهم المرغوب . انهم يتنصلون من العقل لأنه يهدد خرافاتهم ومعتقداتهم الجامدة . ويمكن قراءة القصة المخجلة الشاملة في كتاب أندرو هويت الرائع (تاريخ النزاع بين العلم مع اللاهوت) الذي نشر عام ١٨٩٤ ، ولكنه يظل الكتاب النهجي حول الصدام بين الخرافة والعقل . فإذا نظرنا إلى المسألة من هذا المنظور ، فإن (أصحاب الخوارق) هم بكل بساطة البقايا المتبقية من قوى محاكم التفتيش التي أحرقت جيوردانو برونو وأرغمت جاليليو على التراجع بتهديده بالتعذيب .

وهذه تعدّ حجة قوية ومقنعة . ولكننا في موضع يسمح لنا بأن نتبين ضعفها الأساسي . ومعظم العلماء الممتازين هم أفراد بارزون ، والأفراد الممتازون يميلون إلى أن تصبح لهم طريقتهم الخاصة . وهذه الصورة للعالم ، باعتباره باحثاً منفصلاً مستقلاً يبحث عن الحقيقة بقلب متواضع ونقي ، إنما هي صورة طيبة للغاية . قد تكون للعالم خيرة المقاصد في العالم ؛ ولكن ما لم يكن على وعي بميله الفطري نحو (الصوابية) فإنه لن يحقق مطلقاً الانفصال والاستقلال العلميين .

وعندما تقرأ كتاب (تاريخ النزاع بين العلم والتكنولوجيا) في هذا الضوء فإنه يستحيل إلى كتاب مختلف تماماً . إن المؤلف هويت يحكي قصة مروّعة عن اضطهاد العلماء الأمناء من قبل رجال الكنيسة القطعيين في معتقداتهم . ولكن عندما نقرأ بين السطور أو نتعب أنفسنا بدراسة سير رجال مثل برونو وجاليليو فإن القصة لن تعود قصة العقل ضد الخرافة وتصبح قصة (رجل الصواب) وقد غرق في الصراع العنيف .

عادة ما يعد جيوردانو برونو الذي أحرق عام ١٦٠٠ شهيداً من الشهداء المدافعين عن العقل ، ويكشف كتاب (جيوردانو برونو وتراث هرمس) لمؤلف فرانسيس يتيس أنه لم يكن فحسب متبجحاً ورقيق الإحساس ومصاباً بجنون العظمة بل لقد كان أيضاً داعية لشكل من السحر معادٍ للمسيحية . ولم يكن جاليليو العالم الرقيق المتفاني الذي صوره الكاتب المسرحي الألماني برتولت بريخت في مسرحية تحمل اسم جاليليو ؛ فقد كان عالماً صاحب نزوات متقلب المزاج محباً للتهكم . ولسوء الحظ دخل في تصادم مع خصم من رجال الكهنوت كان هو الآخر (رجل صواب) . لقد تناطح برونو مع الكاردينال روبرت بيلارمين وهو جزويتي مستشار لمحاكم التفتيش وُسِمَ قديساً فيما بعد . وقد وصف كاتب السِيَر المتعاطف جيورجيو دي سانتيلانا شخصية بلارمين على أنه رجل « شديد الطموح معرض للانفجار غضباً وصريح . . مغتر فيما يتعلق بمواهبه العقلية » وهو في الحقيقة مثل برونو نفسه تماماً . ولما كان يرى أنه أروع نفس في العالم فانه ما كان ينتقد برونو . ولكي يتمكن برونو من النجاة من المحرقة كان عليه أن يقر ويعترف أنه كان آثماً ـ إذا تكلمنا من الناحية اللاهوتية . ولقد رفض أن يعترف ولم يكن لدى بلارمين خيار مشروع سوى أن يعدمه .

ولقد كانت قضية جاليليو من القضايا التي نالت المزيد من سوء التصوير . ففي الحقيقة لم تكن الكنيسة الكاثوليكية من الناحية العقائدية معارضة للإيمان بان الشمس هي مركز المجموعة الشمسية . فلقد كان أول من قال بهذا عام ١٥٤٢ كوبرنيقوس الذي كان من رعايا الكنيسة ؛ وكتابه (حول ثورات المجالات السماوية) قد أهداه بالفعل للبابا بولس الثالث . ولقد كره البروتستنت هذه النظرية لأنها تلقي شكا على الكتاب المقدس .

قد يكون الكاثوليك قد شكوا من أن النظرية لغو ، ولكن لم يكن هناك من يعدها خطراً على الإيمان . وفي السياق العادي للأحداث تسللت الأفكار الجديدة عن المجموعة الشمسية داخل الكنيسة إلى أن جرى تقبلها بصفة عامة ولم يكن هناك من يصنع ضجة بشأنها .

وأوقف هذا السياقَ العاديَّ صدامٌ بين اثنين من نوع (رجل الصواب) وهما جاليليو والبابا أوربان الثامن . وهاكم وصف يعقوب بروتوفسكي للبابا أوربان الثامن : « إنه يتمتع بعقلية متناهية الثقة في قدرتها مع نفاد صبر شديد . ولقد كان يقول عن نفسه : (إنني أعرف أكثر مما يعرف الكرادلة مجتمعين . . .) غير أنه باعتباره بابا هو رجل مصطنع تماماً ، يحابي وهو متهوّر متسلط متقلب في خططه أصم بالنسبة لأفكار الآخرين . بل لقد أمر بقتل الطيور في حدائق الفاتيكان لأنّها تزعجه ». ولا نجد أفضل من هذا لوصف رجل الصواب . ولكن جاليليو كان كذلك ، وإن كان بشكل أقل من برونو . لقد كان انساناً رفض أن يتحمل الأغبياء ، ولقد جعل زملاءه في جامعة بيزا ينفرون منه عندما كتب فيهم أشعاراً هجائية . وفي عام ١٦١٦ سمع جاليليو شائعات تقول إن الكنيسة على وشك تحريم تعاليم كوبرنيقوس ، ومن ثم مضى الى روما وتحدث مع الكاردينال بلارمين فقال له هذا الأخير إنه لا يستطيع في الحقيقة أن يقول إن مذهب كوبرنيقوس (حقيقة ثابتة)، ولكنه (يستطيع) أن يستخدمه كفرض من الفروض . وعندما أصبح بربريني البابا أوربان الثامن عام ١٦٢٣ أسرع جاليليو لرؤيته . ولقد كان البابا متعاطفاً لكنه لم يشأ أن يمضي في المسألة إلى أبعد مما ذهب اليه بلارمين (الذي كان قد مات حينذاك) . وجرى الترحيب بجاليليو لبحث افكار كوبرنيقوس على شكل حوار ، طارحاً القضية العكسية ، وكذلك قضيته . لكن عليه ألا يقرر جازماً أن كوبرنيقوس على حق . ولقد أصر أيضاً بصفة خاصة على ضرورة أن يقرر جاليليو بخط يده أن من العبث بالنسبة لأي إنسان أن يحدد قوة الله وحكمته ، واقترح أشياء أخرى بشأن الحوار وعد جاليليو بإدراجها .

وبعد ثماني سنوات رأى البابا عام ١٦٣٢ نسخة من كتاب (حوار حول المذهبين الرئيسيين عن العالم) واستشاط غضباً عندما وجد أن جاليليو لم يقف في صفّه في الجدال ؛ فقد جاء في صف مذهب كوبرنيقوس . غير أن ذروة الإهانة هي أنه طرح إحدى أفكار البابا على لسان غبي اسمه سمبليكيو . ولم يكن هذا تحدياً للبابا فحسب بل كانت لوياً لأفكاره ؛ فاستُدعيَ جاليليو إلى روما وأُمر بالتراجع . وعندما تراجع لم تكن هناك محرقة ولا حتى سجن . وسُمح له بالعودة إلى منزله ، وقد حددت إقامته فيه ؛ وارغم على أن يعد بعدم الكتابة بعد هذا . وقد تجاهل هذا وكتب مؤلفاً عن الفيزياء طبع في الأراضي الواطئة ؛ غير أن السلطة المقدسة لم تقم بمحاولة لعقابه على خرقه لكلمته .

وما هو واضح تماماً هو أن جاليليو (كان في استطاعته) أن ينشر كل حججه لصالح مذهب مركزية الشمس بالنسبة للكون لو كان قد جعل نهاية كتابه قوله (بطبيعة الحال ، الله وحده يعرف ما إذا كان كل هذا صحيحاً) وكان سيحصل على نفس التأثير للكتاب كما كتبه بالفعل ، وكان هناك احتمال أن تتقبله الكنيسة خلال عشر سنوات أو نحوها . وبدلاً من هذا مضى معانداً من غير أن يتخذ موقف المناورة ، وهو ما يتصف به (إنسان الصواب) ، وأغضب البابا الذي أعطاه كلمته . ولما كان البابا اقوى الرجلين ، أُرغم جاليليو على الاعتذار . وقد خرج البابا بلا ثقة كبيرة وكذلك جاليليو .

وبطبيعة الحال انتصر جاليليو على المدى الطويل ، فقبل نهاية القرن السابع عشر جعل كتاب نيوتن (المبادىء) نظرية كوبرنيقوس مما لا يطالها الجدال ، ووجدت الكنيسة صعوبة كبيرة تفسر بها لماذا عارضته أصلاً . ومنذ ذلك الوقت بدأت تحجم عن التدخل في مسائل العلم . وفي الحقيقة ، لقد كانت مسألة جاليليو آخر تدخل كبير لها .

واستناداً إلى ما جاء في كتاب (تاريخ النزاع بين العلم واللاهوت) استمرت الكنيسة تناضل لقرنين تاليين وهي تبذل المستحيل لتبطىء من تقدم الجيولوجيا وعلم الفلك ونظرية التطور . ولكن عندما نرجع إلى كتب التاريخ نكتشف مرة أخرى أن هذا سرْد من جانب واحد . فما أحجم هويت عن إدراجه هو أن العلماء أنفسهم هم الذين كانوا يعرقلون العلم بالوقوف ضد بعض الاكتشافات الجديدة ويعارضونها بكل ما لديهم من تحامل . ويضرب هويت مثلاً ببرنارد باليسي ، الذي اتهم بالهرطقة عندما اقترح أن الحفريات هي عظام حيوانات ماتت منذ أمد طويل (مات في سجن الباستيل عام ١٥٨٩) ولكنه فشل في إضافة أنه عندما يقوم جوهان شوشزر ، وهو أحد الهواة في علم الجيولوجيا ، بالدفاع عن الفكرة نفسها في كتيب عام ١٧٠٨ ، لا تجده الكنيسة مخطئاً ؛ لقد كان العلماء هم الذين رفضوا الفكرة وأدرجوا آراء أرسطو لتدعيم آرائهم في أن الحفريات هي مجرد صخور تبدو أشبه بالحيوانات الحية. واشترك العقلاني فولتير في الجدال في صف العلماء ؛ فقد قال إن العظام التي وجدت في الحفريات في الجبال قد تكون أسماكاً ميتة رماها الرحّالة .

ونظرية التطور لم يخترعها شارلز دارون بل ولا حتى جده اراسموس دارون . فالذي اخترعها هو الدبلوماسي الفرنسي بنو دي ميليه الذي ولد في اللورين عام ١٦٥٦ . فقد كتب ميليه حوالي عام ١٧١٥ كتاباً اسمه (هيليم) [اسمه بعد عكس الحروف] وهو يعرض فيه وجهة نظر دقيقة عن التطور . لقد جاءت جرثومة الحياة من الفضاء ، ويقول إن هذه الجرثومة قد تطورت تدريجياً إلى أجهزة متعضونة بحرية بسيطة في المحيط الأولي . وزحفت الأسماك إلى الأرض وتطورت إلى حيوانات وطيور . ويقول إن هذا حدث على فترات شاسعة من الزمن .

وقرر ميليه عدم نشر كتابه أثناء حياته ؛ فقد كان يمكن أن يعرض وظيفته الحكومية للخطر . وظهر الكتاب عام ١٧٤٩ بعد وفاته بإحدى عشرة سنة . غير أنه كان هناك الكثيرون الذين قرأوا المخطوطة وجرت مناقشة فكرة التطور على نطاق متسع في سنوات ١٧٣٠ . ومرة أخرى كان الذي رفضها هم العلماء وعلى رأسهم عالم الاحاثة المتخصص في دراسة الحياة القديمة كارل لينّاوس ، أحد مشاهير العلماء في القرن الثامن عشر ، وقد بدأ كتابه الضخم (نظام الطبيعة) (١٧٣٥) بالتأكيد التالي : « توجد الآن كثرة من الأنواع شأن الكثرة التي كانت موجودة في بداية الخلق ». (وقد رفض أيضاً الحفريات في صفحة واحدة تتناول المعادن) وصب فولتير أيضاً احتقاره لنظرية ميليه باسم العقل والحس العام المشترك .

ولم تكن الكنيسة خارج الحلبة تماماً . ففي عام ١٧٥٠ نجد العالم الطبيعي الكونت بوفون ، المشرف على الحدائق الملكية ، يكتب مؤلفاً بعنوان (نظرية الأرض) أكد فيه أن الأرض كانت أصلاً جزءاً من الشمس وأن الحفريات هي بقايا أجداد بدائية لمخلوقات اليوم . ولقد تلقت الكنيسة صدمة ، وأعلن الرقباء أن آراء بوفون لا تتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس عن الخلق . وفي جزء تال من (التاريخ الطبيعي) اخطر بوفون إلى أنه لا يوجد شيء أبعد عن تفكيره من مناقضة الكتب المقدسة لكنه استمر في عرض نظريته عن التطور ولم يعان من أي اضطهاد آخر .

ولسوء الحظ كان العنصر الوحيد في نظرية بوفون والذي ترك أثراً عاماً هو تفسيره لماذا بادتْ هذه الأنواع القديمة . ولقد وقع الفيلسوف المادي لامتري على الجواب الصحيح : لأنها فشلت في معركة البقاء وماتت . ولقد رفض بوفون هذا ؛ وبدلاً من هذا اقترح أن الأرض قد تعرضت لسلسلة من الكوارث العنيفة ـ الفيضانات والزلازل ـ دمّرت الحياة كلها . ثم ظهر (جيل تلقائي) وبدأ الأمر من جديد . وهذه النظرية عن الكوارث أصبحت عقيدة أخرى تسببت في متاعب عديدة خلال الخمسين عاماً التالية أو نحو ذلك .

وخاطر الشاعر جوته أيضاً في نظرية التطور وخرج بمعظم الاجابات الصحيحة . ففي سنوات ١٧٨٠ كان يعيش في فيمار باعتباره وزير البلاط في هذه الدوقية ، وأصبح مهتماً بعلم الإحاثة أي البحث في الحياة القديمة . وقد استرعى انتباهه بصفة خاصة ما قاله عالم الاحاثة الهولندي بيتر كامبر من أن الإنسان يختلف عن الحيوانات الدنيا في أنه ليست له عظمة في الفك العلوي الذي به القواطع . ومال جوته إلى الاعتقاد بأن الإنسان مختلف تماماً عن الحيوانات الأخرى ، ومن ثم انطلق في دراسة جماجم عديدة بقدر ما استطاع أن يستعيدها من متحف فيمار . وفي مارس (آذار) ١٧٨٤ أعلن لصديقه هردر أنه اكتشف عظمة الفك العلوي في الإنسان ؛ وكتب عن هذا الموضوع بحثاً وأرسل به إلى كامبر ؛ غير أن كامبر لم يكن حفياً بالشاعر المشهور وصديق الدوق كارل أوغست ؛ لكنه بيّن أن جوته ليس في استطاعته أن يكتشف آثار عظمة الفك العلوي في الإنسان لأنها ليست موجودة . وحاول جوته ارسال دراسته إلى بلومنباش الذي أعقب بوفون وهو يعرف عنه رحابة الأفق ؛ غير أنه استاء عندما وجد بلومنباش يستبعد نظريته بالمثل . ولقد ذاق جوته بهذا أول مذاق لغرور العلماء . لقد فشل في أن يفهم أنهم يعتبرونه متطفلاً وهاوياً فجاً . ومن ثم قرر أن يمضي وحيداً لتطوير نظريته عن التطور ، بما في ذلك أن تنوع المخلوقات الحية قد تطور أصلاً من أشكال أو أنواع أساسية قليلة . وواصل العلماء تجاهله إلى ما يقرب من قرن إلى أن اعتبر الرائد الملهم قبل دارون .

وربما كانت أكبر مصيبة تدعو للحزن عن نظرية بوفون عن الكارثة هي صديقه ، وتلميذه جان ـ باتيست لامارك . لقد كان لامارك داعية متحمساً لنظرية التطور كما قال بها ميليه ولاماتري وبوفون . لكنه لم يتبين سبباً يدعو لتقبل نظرية (الكوارث) . ومن المؤكد أن تنوع الأنواع يمكن تفسيره بتنوع الأحوال والظروف على الأرض . إن دبّاً في المناخ الثلجي لا يحتاج إلى أن يكون له فرو أبيض لإخفائه عن ضحيته ؛ أما دب الغابات فهو الذي يحتاج له لكي يتخفى بين الاشجار .

وفي عام ١٧٩٤ كان هناك شاب اسمه جورج كوفييه عُيّن في وظيفة بحديقة النباتات ؛ وأصبح من المحبذين للغاية للامارك . وفي الحقيقة برهن كوفييه أنه ولد كعالم لعلم الاحاثة بالطبع مثل لينايوس ، مع قدرة طبيعية على التشريح المقارن . وأكسبته نظرياته الجريئة شهرة واسعة باعتبارها نظريات ثورية . ومع هذا فهو من ناحية الجوهر أكثر محافظة من لامارك . لقد تقبل رأي لينايوس القائل بأن الأنواع غير تبادلية وإن كان لينايوس نفسه قد غيّر آراءه قبل خاتمة حياته . ولقد شعر أيضاً أن نظرية الكارثة عند بوفون هي مسألة خاصة بالحس المشترك العام . وفوق كل شيء فإن عيوننا تقول لنا إن العديد من الأنواع قد تلاشت الآن ، إنها لم تتطور إلى شيء مختلف . وقد استخلص أن الخلق قد تمّ في سلسلة من الخطوات ـ أولاها الفقاريات ثم الحشرات ثم الرخويات ثم الديدان .

وأضفت معرفته الواسعة الصدق على آرائه . ولقد اشتهر باستطاعته تكوين كل شامل لحيوان ما قبل التاريخ بدءاً من الحيوانات ذات العظمة الواحدة ؛ وقال إن الطبيعة متناسقة كلها وأن الخصائص الحيوانية تندرج في مجموعات (وأطلق على هذا اسم قانون الروابط) .

وأخيراً استخدم كوفييه قانونه عن الروابط للقضاء على سمعة وحياة صديقه القديم وناصره وحاميه . ففي ذات يوم حضر كوفييه احدى محاضرات لامارك وتحداه أن يبرهن على أن الحفريات هي أجداد لأنواع اليوم ؛ فرد لامارك بأن هذا مستحيل . وحينئذ اصطحب كوفييه الطلبة إلى حجرة محاضراته

هو وأعلن أنه قادر على أن يبرهن على أنه يعرف عن الحفريات معلومات تزيد عن معلومات لامارك . فاستخلص حفرية فيما قبل التاريخ عظمة واحدة منتثرة من صخرة . ثم بحرص شديد مرر الصخرة على الطلبة مدللاً على صحة كلامه . فحمله الطلبة وهو منتصر ، ومن ساعتها لم يكن يحضر أحد محاضرات لامارك . ومات بعد سنوات قليلة وقد هُجر ونُسي . ولم يلحظ أحد أن (برهان) كوفييه لم يكن صادقاً ؛ فالتعرف الصحيح على الحفرية من عظمة واحدة لا يبرهن ولا يدحض نظرية التطور .

ومفهوم عدم إدراج أندرو هويت هذه الحادثة . لكنه اضطر (بالفعل) إلى الاعتراف بأن كوفييه كان من أصحاب النزعات القطعية . وطريقته في هذا مهمة . لقد شرح أن كوفييه قد خاض الحرب (تماماً من أجل العالم ولكنه من الناحية اللاشعورية من أجل اللاهوت) ومضى موضحاً أنه (كان فيه كما في ليناويوس بقية من الطرق اللاهوتية في النظر إلى الكون) . ولقد التزم هويت بالرأي القائل إن جميع اللاهوتيين قطعيون ومؤمنون بالخرافات ، وأن جميع العلماء مفتوحو العقل ومعقولون ؛ فإذا كان كوفييه وليناويوس قطعيين ولا يؤمنان بالعقل فلا بد أنهما لاهوتيان متنكران . ولرأي فان فوغت ـ على الأقل ـ ميزة رفع التناقض . إننا يمكننا أن نتوقع وجود عالم هو (رجل صواب) يتصرف تماماً مثل اللاهوتي الذي هو (رجل صواب) والعكس بالعكس .

وحتى في الموت كان كوفييه محظوظاً ؛ لقد مات عام ١٨٣٢ قبل أن تقضي على نظرية الكارثة اكتشافات علماء جيولوجيا من أمثال شارلز ليل . وكان لا بد أن ينقضي ربع قرن على العلم لكي يشفى من نتيجة خطأ كوفييه عندما قام شارلز دارون باعلان النفير من أجل المعركة القادمة في (نزاع العلم واللاهوت) .

الجدال الداروني إنما يمكننا من أن نتبين ما كان خاطئاً في العلم وما ظل سائداً كخطأ منذ ذلك الوقت . للوهلة الأولى تبدو المسألة بكل بساطة معركة بين قوى التقدم وقوى الرجعية . لقد كان الخصم الأكبر لدارون هو الأسقف ولبرفورس (ويُعرف باسم سام الصابوني لطريقته الناعمة) وواضح أنه متعصب حرون وقع فريسة مباشرة للعلماء . فعندما قال أحدهم إن دارون قد أمضى عشرين عاماً للبرهنة على نظريته في التطور رد ولبرفورس مكتسحاً : « إن شخصاً ذكياً لا يحتاج إلا لعشر دقائق تأمل ليتبين أن النظرية مستحيلة تماماً » . . وفي مناظرة بجامعة أكسفورد استحق أن يسحقه ت . هـ . هكسلي بعد أن تساءل ما إذا كان هكسلي قد انحدر من قرد من ناحية أبيه أم من ناحية أمه . فرد هكسلي بعنف : « إنني ما كنت اخجل أن يكون اسلافي من القرود ولكنني كنت أخجل (بالفعل) أن أرتبط بإنسان يستخدم مواهبه الكبيرة لطمس الحقيقة » .

غير أن القصة تلقي ضوءاً على عدم دقة الرأي المعتاد عن المناظرة . ليست المسألة حقاً ما إذا كان الإنسان منحدراً من القرد ، فلو كان الأمر كذلك لكننا الآن اعترفنا بأن ولبرفورس كان على حق وهكسلي كان على خطأ ؛ لأننا نعرف الآن أن الكائنات الشبيهة بالإنسان انفصلت عن أسلافنا المشتركة منذ ٣٥ مليون سنة على الأقل . وقرد اليوم ليس سوى ابن عم بعيد تماماً ، وهو بعد مماثل لما بين الحصان والجمل .

لكن الجدال (لم) يكن يدور حول هذا . إن ما أقلق الكنيسة حقاً هو ما تضمنته نظرية دارون أنه لا يوجد شيء اسمه حرية الإرادة وأننا نعيش في كون بلا إله وبلا معنى . وقبل هذا بقرن تسبب الفيلسوف جوليان دي لامتري في فضيحة مماثلة بكتاب اسمه (الإنسان الآلة) (١٧٤٨) قال فيه إن النفس لا توجد وأن الإنسان يمكن تفسيره في الاطار الآلي فحسب . والغضب الذي انبعث من جراء هذا الرأي لم يكن يقوم على قناعة دينية بقدر ما كان يقوم على شعور بأن لامتري يتحدث عن لغو شديد ، ومع هذا يتحدى كل المحاولات لدحض مغالطته الأساسية . لقد كان دارون نفسه مسيحياً متزمتاً لم يقترح إطلاقاً أن الإنسان آلة أو أن الطبيعة لا غرضية . غير أن نظريته عن الانتخاب الطبيعي تجعل من حرية الإرادة شيئاً من نافلة القول . لقد اعتقد لامارك أن الأنواع تتطور لأنها (تريد) هذا ؛ إن الزرافة تطيل عنقها وتطيل حشرة آكلة النمل من قرن استشعارها بمحاولة الوصول إلى أماكن لست في المتناول . ودارون لا ينكر هذا ؛ لكنه أشار أيضاً أنه لم تكن هناك حاجة لبذل أي مجهود . ففي زمن نقص الطعام فإن الزرافات القصيرة العنق أو الدببة القطبية البنية اللون تموت ، ولا تعيش سوى الزرافات ذات الرقاب الطويلة والدببة القطبية البيضاء لتواصل أنواعها . وقد توصل صمويل تبلر إلى نقطة معينة على نحو مباشر عندما قال ان دارون قد (ألغى العقل من الكون) .

إن موضوع القرد قد مكن الداروينيين من إحراز انتصار سهل على الكنيسة وعلى رجال مثل ولبرفورس ودزرائيلي (الذي أثار الضحك عندما قال إنه « في صف الملائكة »). لقد أظهرت النظرية هؤلاء الناس كما لو كانوا يقفون على كرامتهم غير راغبين في أن يصنفوا مع (الحيوانات الدنيا) ، مع أن اعتراضهم الحقيقي هو أنهم يُصنّفون مع كتل الصخر وتربة الأرض . وهذه ليست مسألة كرامة بل مسألة حس عام مشترك . وأسرع طريقة لتدمير إنسان هو نزع شعوره بالحرية والمعنى ؛ والأمر نفسه ينطبق على الحضارات . ولو كان لبرفورس ذكياً بما فيه الكفاية للتوجه لقلب المسألة لكان قد أشار إلى أن العلم قد أدخل نفسه في تناقض رئيسي ، وإذا لم يكن العلم حريصاً فإنه سوف ينتهي بتعقيد نفسه . إن الناس يصبحون علماء للسبب نفسه الذي يصبحون من أجله مستكشفين : لذة الاكتشاف ، وإثارة المجالات والشعور بالامكانات المجهولة . فإذا أصر العلماء ـ انطلاقاً من مجرد إثارة الكنيسة ـ أنه لا يوجد شيء اسمه الإرادة الحرة وأن الكون بلا معنى وبلا غرض فإنهم يتسببون في ضرر

أكبر من ضرر عشرة من رجال محاكم التفتيش . إنه أمر مشين أن تدمر إحساس الإنسان بالحرية باسم تحريره من النزعة القطعية لدى اللاهوتيين الأشرار ؛ من الغباء محاولة اقناعه بأنه آلة لكي تحرره من خرافة أن له نفساً خالدة وقدرة على تقرير مصيره .

لقد كان العلماء مبتهجين للغاية عندما أتيحت لهم الفرصة للتلويح بقبضتهم في وجه الكنيسة . وما حدث بالفعل هو أن العلم أصبحت له السلطة كما تولى المتطرفون الفوضويون السلطة في فرنسا عام ١٧٨٩ والشيوعيون في روسيا عام ١٩١٧ . لقد ولّى النظام القديم ولم يكن لدى العلماء قصد أن يعطوه موطىء قدم في عالم أفكارهم الجديد .

ومقابل هذا نقول إننا لا نستطيع أن نتبين أن من حق العلم أن يتحدث عن مسائل حرية الإرادة والغرض ، بمثل ما أن البابا أوربان الثامن ما كان يحق له أن يتحدث عن المجموعة الشمسية . لقد كان دارون معنياً بالوقائع العلمية وهذه لا يمكن إنكارها ، غير أن عرضه لميكانيزم التطور لا (يبرهن) على المادية بمثل ما أن عرض لامتري من أن الإنسان آلة يدحض الإرادة الحرة . لكل إنسان الحق في أن يقرر أن الكون مصنوع من المادة ؛ ولكن ليس من حق أحد أن يقرر أنه ليس مصنوعاً إلا من المادة . من حق أي إنسان أن يقول إن الإنسان آلة (كرر هذا جورديف) ؛ ولكن ليس من حقه أن يؤكد أنه (مجرد) آلة وعاجز عن أن يكون شيئاً آخر .

ولقد انزعج قليل من العلماء والفلاسفة إزاء هذا التيار الشمولي ؛ بل لقد كان لدى البعض منهم شجاعة لكي يصححوا هذا التيار . كان هناك عالم احياء شاب اسمه هانز دريش كان يعمل في محطة الحيوانات البحرية في نابلس ، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر . وبدأت تنتابه شكوك إزاء تزمّت الموقف الميكانيكي . لم يكن يعبأ بجانبه الفلسفي بل بالاعتبارات العملية الخالصة . ولقد حاول تكرار تجربة على بيضة مخصبة سبق أن أجراها وهلم روكس . وتقوم التجربة على الانتظار إلى أن تنقسم بيضة ضفدعة ثم يقتل أحد النصفين بإبرة ساخنة . والنصف الباقي يتطور ـ كما يمكن أن يتوقع الإنسان ـ إلى مجرد نصف جنين . ويقول روكس إن هذا يحدث لأن البيضة هي نوع من الآلة ويتطور النصف الباقي آلياً ، غير مدرك أن نصف أجزائه مفقود . وحاول دريش أن يجري التجربة نفسها مع بيضة قنفذ البحر ، ولدهشته تطوّر النصف الباقي إلى جنين كامل وإن كان بحجم النصف . واضح أن كل نصف من البيضة يحتوي على (طبعة) من الكل . ووجد دريش نفسه يتساءل كيف يمكن (لآلة) أن تعيد بناء الجهاز العضوي نفسه إذا انقسمت نصفين .

ولقد حاول تسطيح بيضة بين لوحين من الزجاج ؛ وعندما رفع الضغط استعادت البيضة شكلها البيضاوي . وإذا ضغط بيضتين معاً فانهما تختلطان وتنتجان يرقانة مضاعفة الحجم . ولقد حصل روكس على نتيجته من بيض الضفادع لأنها أبعد ما تكون عن التكيف عن الأنواع الأخرى ؛ ومع هذا فحتى بيض الضفادع يظهر سلوكاً (غرضياً) إذا ما عومل بعناية . بقول آخر ، من المهم ألا (نثبط همتها) . وفكرة عدم اثباط الهمة تطرح من جديد فكرة الإرادة الحرة .

لقد استنتج دريش أن الخلية الحية تستهدف نوعاً ما من (الكل) ، وقال إذا كانت تستطيع (أن تستهدف) فإنها لا يمكن أن تكون آلية تماماً . وانطلق من هذا فاقترح أن الأجهزة العضوية لا يمكن أن نفهمها إلا باعتبارها (كليات) تؤدي وظيفة ؛ والفيزياء والكيمياء لا تستطيعان أن تقصّا علينا كل شيء عن الجهاز العضوي الحي . وأخيراً ، بعد حوالي عشر سنوات من بداية شعوره بأخطائه، غامر وأعلن قناعته بأن الجانب الحيوي الغرضي في الكائن الحي هو (منفصل تماماً) بشكل ما عن كيميائه ، وأنه يتصرف من بعد آخر . ولم يضيّع نقاده أي وقت للإشارة إلى أن (النزعة الحيوية) عند دريش ليست سوى عودة إلى الفكرة الدينية القديمة عن الجسم والنفس . ويعترض دريش ؛ لقد شعر بأن ما عليه أن يقوله أبعد من هذا تعقيداً وأهمية . وفي عام ١٩٠٨ وقع في خطأ التخلي عن العلم من أجل الفلسفة ، وبقدر ما يهم العلماء أظهر الآن نفسه في ألوانه الحقيقية ؛ فالفيلسوف لا يزيد إلا قليلاً عن كونه لاهوتياً متنكراً . ويمكن تجاهله بسلام ، واستمر العلماء يتجاهلون دريش حتى وفاته عام ١٩٤١ . وما حدث هو ما يمكن أن نتوقعه من نظرية (إنسان الصواب) عند فان فوغت . لقد حذا العلماء حذو اللاهوتيين .

والسخرية الكبرى في الموقف يمكننا أن نتبينها في التاريخ الغريب لظهور سقوط تروفيم ليسنكو . ففي روسيا في أواخر سنوات ١٩٢٠ كانت هناك اشادة بشكل من أشكال اللاماركية من جانب عالم الزراعة ا . ف . ميتشورين الذي أكسبه اشتغاله على أشجار الفاكهة استحسان ستالين . لقد اعتقد ميتشورين أن الخصائص المكتسبة (يمكن) أن تنتقل إلى الأجيال القادمة . لقد اعتقد أن القمح الشتوي (الذي يمكن أن يُعَجّل إثماره) يمكن أن يتأقلم مع بذر الربيع بمعالجته بالمياه والتبريد . أما . ت . د. ليسنكو ، وهو عالم ماهر آخر في الفلاحة ، فقد أخذ بهذه الطريقة للاستخدام على نطاق عريض ، مع نتائج مفيدة للحصاد في أوائل ١٩٣٠ . وأصبح ليسنكو العالم المفضل لدى ستالين ، لا لأنه حسّن انتاج القمح فحسب (وهي مسألة يمكن الشك فيها) بل لأن فلسفته تبدو ملائمة لأغراض الدعاية . لقد آمن ليسنكو بأن الوراثة لا قيمة لها والبيئة هي كل شيء . ومن ثم فإن ما على كل الشيوعيين أن يفعلوه ليس إلا تحسين البيئة وفي خلال جيلين يكونون قد ربّوا نمطاً جديداً من الروس .

لقد كان التفاؤ ل لا ماركياً بكل تأكيد ؛ ولقد كان برنارد شو يقول بشيء شبيه بهذا منذ عام ١٩٠٠ . غير أن ليسنكو كان في

وضع فريد ، فهو يعيش في مجتمع قائم على المادية الجدلية ، ويروج لفلسفة قائمة على الإرادة الحرة والغرض . وفي مؤتمر علمي في عام ١٩٣٦ بدأ التناقض يظهر عبثاً . لقد أعلن ليسنكو أن نظرية الوراثة في التطور ـ القائمة على دارون ومندل ـ لغو ، وأنها ليست سوى مؤامرة فاشية لتبرير الاضطهاد والقمع . وقال : إن علم الاحياء (المادي) السوفيتي يرفض كل هذه الأشكال (المثالية) . ومن ثم فإن العارض الأساسي للنزعة المندلية وهو ن . ا . فامنيوف قد ألقي القبض عليه واتهم بالتجسس والتخطيط للقضاء على الزراعة الروسية ؛ ولقد مات في السجن . وكانت الحرب عاملاً في إيقاف المزيد من الانقسامات بين علماء الإحياء الروس . ولكن حدث في عام ١٩٤٨ ، في اجتماع لأكاديمية لينين للزراعة ، أن اتهم خمسة علماء إحياء آخرون بالهرطقة المندلية وأرغموا على تقديم اعتذار والاعتراف بخطئهم .

لقد اكتمل الالتباس الآن : إن (الماديين) السوفييت الذين يؤمنون بالإرادة الحرة ينددون (بالمثاليين) الغربيين الذين يرفضون الإرادة الحرة . و (المثاليون) الغربيون الذين يؤمنون بحرية التعبير ينددون بزملائهم السوفييت الذين يسجنون الذين لا يؤمنون بالإرادة الحرة. ويبدو الأمر كما لو كانت الشعارات ترفع ثم ترتد على الناس .

وأخيراً مات ستالين ونُدّد به خروشوف باعتباره طاغية ؛ ونال ليسنكو التنديد نفسه الذي ناله أستاذه . وانتقل علماء الاحياء الروس من (المادية) المتفائلة إلى (المثالية) المتشائمة في الغرب . وهم مرة أخرى أحرار في أن يعتقدوا ما يشاؤون بشرط ألا يتضمن هذا ـ بالطبع ـ الإيمان باللاماركية أو الإرادة الحرة .

وواضح أن العلم والدين لا يمتلكان كلاهما احتكار الحقيقة . من الناحية المثالية يُعدّ العلم سعياً غير شخصي وراء الحقيقة ؛ وكذلك الدين كما يعترف بهذا جميع القديسين والمتصوفين . والسعي وراء الحقيقة يقتضي صفات معينة في القديس والمتصوف . والناس العاديون يتأرجحون بسهولة من جراء الرغبة في القوة والشهرة والتقدير الذاتي .

طوال الأربعة قرون الماضية والعلم ضحية الوهم بأن كل المطلوب ، وهو السعي وراء الحقيقة ، هو (المنهج العلمي) . ويكشف تاريخ العلم أن هذه النظرة خاطئة . فالعلماء يتنازعون بمرارة ـ ومراراً ـ مثل رجال اللاهوت وهم معرّضون لاستغلال السلطة الشخصية لقهر خصومهم .

فهل يعني هذا أن الحقيقة العلمية لا يمكن الحصول عليها ، واضح أن الجواب بالنفي . لقد كان نيوتن ـ على الأرجح ـ أكبر عالم كبير مصاب بالذهان وجنون العظمة ، ولقد كان دائم الشك في الآخرين حتى أنه رفض أن ينشر اكتشافاته خشية أن تُسْرق . ومع هذا فإن كتاب (المبادىء) يعد صرحاً هائلاً (للحقيقة العلمية) . وهذا يبرهن على أن (رجل الصواب) يمكن أن يكون عالماً كبيراً ؛ لكنه لا يبرهن على أن جنون العظمة صفة عقلية مرغوبة ؛ وواضح أن المشكلة هي أن معظم العلماء لا ينقدون أنفسهم بما فيه الكفاية حتى يتبينوا متى يتصرفون مثل رجال اللاهوت .

وفي الدراسة الهامة (بناء الثورات العلمية) (١٩٦٢) يدرج المؤلف توماس اس . كوهن تجارب تنفذ إلى صميم الموضوع ففي ١٩٢٩ أجرى ج . ا . س . وبرونر وليوبوستمان تجربة مثيرة في الإدراك الحسي . فقد طلب من الذين أجريت عليهم التجربة أن يسموا أوراق اللعب التي يتم إظهارها لهم . وبعض هذه الأوراق قد صُنعت خصيصاً بها بعض (التغييرات) المتعمدة مثل القلوب السوداء والأسباتي الحمراء وعندما تكون الأوراق مكشوفة للحظة وجيزة فإن من تجري عليهم التجربة سيحددون القلوب أو الاسباتي دون أن يلاحظوا خطأ في اللون . وعندما يتم كشف الورق لفترة أطول يصبحون متحيرين ؛ على أنهم يعرفون أن هناك شيئاً خاطئاً ولكنهم لا يستطيعون تحديده . وإذا كان كشف الورق يستغرق مدة طويلة كافية فإن معظمهم يستطيع أخيراً أن يحدد الخطأ . ولكن هناك قلة لا تدرك ما الذي يجري ، وهؤلاء يعيشون في (محنة شخصية دقيقة) .

ويقول كوهن إن العلماء بمجرد ما يصبحون مستقرين على نظرية معينة فإنهم لا يرغبون الاعتراف بأنه يمكن أن يكون هناك خطأ . وإذا ازدادت الوقائع المتناقضة يزدادون استياء وغضباً . لكنهم غير مدركين قط أنه يوجد شيء غير معقول في رد الفعل هذا ، إنهم يشعرون بأنه غضب طبيعي لإنسان معقول في مواجهة أشكال العبث المضيعة للوقت .

ويدرج كوهن تجربة من أكثر التجارب دلالة في تاريخ البحث العلمي ؛ وقد جرت التجربة في كلية رادكليف في ١٩٤٢ وقامت بها الدكتورة جرترود شميدلر وأصبحت معروفة باسم (تجربة الغنم والماعز) . كانت الدكتورة شميدلر تختبر مجموعة من الطلبة لبحث الإدراك الحسي الخارق ، فكانت تطلب منهم تخمين البطاقات . وقبل التجربة كانت تسأل عمن يؤمن في امكانية الإدراك الحسي الخارق ، ومن يرد بالإيجاب تصنفهم على أنهم غنم ، ومن يرد بالنفي تصنفهم على أنهم ماعز . وأظهرت النتائج أن نسبة الغنم عالية ، غير أن الشيء المثير للغاية هو أن الماعز قد سجلوا نسبة منخفضة ، أي أنهم كانوا (يغشون) على نحو فريد لتدعيم رأيهم في أنه لا يوجد مثل هذا الإدراك الحسي الخارق ، فكانوا يتجاهلون تخميناتهم عن البطاقات . وفي هذا كانوا يظهرون إيماناً بالادراك الحسي الخارق شأنهم شأن الماعز ولكن على نحو سلبي . لقد كانوا واقعين تحت تأثير تصحيحهم (ألاّ) يؤمنوا بالإدراك الحسي الخارق .

ولم يكن كوهن أول من حلل هذه السلبية اللاشعورية . فلقد وضع عالم النفس والفيلسوف الأمريكي وليم جيمس يده عليها في مقال له عنوان كله دلالة : (حول عماء معين عند الإنسان) .

وتعرف وليم جيمس على هذا (العماء) المتعمد الذي يشكل أساس عمل إنسان آخر من نيويورك أمضى حياته يخاطب العلماء حول نقص انفتاح عقولهم واسمه شارلز هوي فورت . وبسخرية شديدة أصبح هذا الجامع المنهجي الصارم (للوقائع المغلوطة) معروفاً كقديس للمجانين المهووسين .

لقد كان فورت الابن الأكبر لرجل أعمال ثري سيِّء الطبع ؛ ولقد نشأ ولديه حسّ بالجور وكراهية لوالديه . وعندما بلغ الثانية والعشرين بدأ كتابة القصص بأسلوب يشبه أسلوب مارك توين . وبدأ ينمي ايضاً اهتمامه بالقصص الغريبة ـ كتب عن الهرم الأكبر وقارة اطلنطيس وقنوات كوكب المريخ . وأول كتاب غير قصصي يؤلفه ، وهو في منتصف الثلاثين ، اسمه (هـ) قال فيه إن حضارتنا يتم السيطرة عليها من المريخ . وفي كتابه التالي (و) عرض لنظرية الأرض المجوفة ووصف حضارة داخل القطب الجنوبي . ثم فُقدت المخطوطتان ، ويبدو أنهما كانتا استباقاً لشيء جعل اريك فون دنكن انساناً مشهوراً في سنوات ١٩٦٠ ، والسبب في استبعاد هاتين المخطوطتين هو بالتأكيد أسلوب فورت المروّع ، ولا بد أنه أسلوب أقلق الناشرين عام ١٩١٠ بشكل أشد مما في سنوات ١٩٦٠ .

وفي عام ١٩١٦ ، عندما كان فورت في الثانية والأربعين ، مكنته أسطورة صغيرة من تكريس أيامه في المكتبات العامة بنيويورك بحثاً عن دوريات تتناول الأحداث الغريبة والتي لا تفسير لها . واستلفت نظره أنه بالرغم من أن الصحف العلمية (تدرج) غالباً أحداثاً غريبة ، إلا أنه لا يوجد من يفسرها . والقصص الغريبة الكثيرة بصفة خاصة هي التي تتناول الأشياء الساقطة من السماء : لا الشهب فحسب بل وابل الأحجار والفحم والأسماك والضفادع والرمل بل وحتى الدم . وقد أشار فورت إلى أنه حدث في ١٣ سبتنمبر (أيلول) ١٧٦٨ أن سمع فلاحون فرنسيون من الحقول بالقرب من (لوس) اصطداماً عنيفاً مثل العاصفة الرعدية ورأوا شيئاً حجرياً ضخماً يهبط من السماء . ولقد طلبت أكاديمية العلوم الفرنسية من عالم الكيمياء الكبير لافوازييه تقريراً عن الحادث ؛ غير أن لافوازييه كان مقتنعاً بأن الأحجار لا تسقط اطلاقاً من السماء ، وقال إن كل الشهود كانوا مخطئين أو كذابين . ولم يحدث إلا في القرن التاسع عشر أن آمنت الأكاديمية أخيراً بحقيقة الشهب .

وكتاب (كتاب الملعونين) هو مجموعة من مئات الأحداث الغامضة وهو كتاب جعل فورت من ضمن المشهورين من رجالات الأدب . ولم ينجح الكتاب في الوصول إلى الجمهور الواسع ، لان فورت يكتب باسلوب لا يكاد يصلح للقراءة ، وهو يتنقل من موضوع الى موضوع . غير أن الوقائع مذهلة بما فيه الكفاية . فقد وصف ـ على سبيل المثال ـ سلسلة غريبة من الأحداث التي وقعت في أوائل سنوات ١٨٦٠ . ففي يوليو (تموز) ١٨٦٠ سقط شهاب هائل مغطى بالثلج في دورمالا بالهند ، وقد وصفه نائب القنصل البريطاني في المنطقة . ولكن كيف يمكن لشهاب ـ يصبح شديد الالتهاب بالحرارة وهو يخترق مجالنا ـ أن يُغَطّى بالثلج ؟ ولقد شاهد نائب القنصل في المساء التالي أضواء تتحرك في السماء مثل البالونات النارية . وفي الوقت نفسه نشرت صحيفة في بنارس نبأ غريباً عن وابل من الأسماك الحية ، بينما في فاروكبهاد أمطرت مادة حمراء من السحب . وفي عام ١٨٦١ كان هناك زلزال في سنغافورة أعقبه مطر مدرار استمر عدة أيام ؛ وفي البرك التي تخلفت من المطر في الشوارع وجدت أسماك حية وهي تسبح . والنظرية الشائعة القائلة إن المطر تسبب في فيضان أحد الانهار تبدو متناقضة ، فقد وجدت أسماك في فناء محاط بسور عال .

اعتقد فورت أن هذه الظواهر الغريبة مرتبطة بشكل ما بالفضاء ؛ لقد كانت هناك تأثيرات قمرية في السماء مثل رياح الشمال الشفقية في وقت هذه الأحداث الغريبة ، فترّ ظلام خلال ساعات النهار ، بقعة سوداء في الشمس ، وزلزال . إننا قد نعرف قدراً كبيراً عن سطح كوكبنا لكننا لا نعرف إلّا القليل عن بلايين الأجرام في الفضاء والتي تدور فيه الأرض . وقد مال دامون نايت الذي كتب سيرة فورت إلى اعتناق الرأي نفسه بعد أن أتعب نفسه بوضع قائمة كبيرة لكل الأحداث الغريبة التي جاءت في كتب فورت ووضع رسوماً بيانية تظهر أوقات حدوثها . ولقد اكتشف معامل ارتباط مباشراً بين العواصف والأشياء التي تشاهد في السماء والاشياء الساقطة في الجو وبين الأشياء التي تشاهد في الفضاء (مثل البقع الشمسية والمذنّبات) فمثلاً وصلت كلها الذروة في عام ١٨٨٧ ثم مرة أخرى في عام ١٨٩٢ . ويرى نايت أن مثل هذه الأحداث قد ترتبط بقوى تمارسها الأجرام السماوية ـ وهي قوى يؤمن بها المنجمون . غير أن فورت لم يبذل أي جهد لتقديم حجة متماسكة سواء في كتابه (كتاب الملعونين) أو في الثلاثة مجلدات التي ظهرت بعده . إنه قادر على أن يقول في احدى الصفحات إن هناك قارة طافية في السماء معلقة فوق الهند في عام ١٨٦٠ ، وفي الصفحة التالية يقول إن هناك كوناً مماثلاً لكوننا في (بُعْد) آخر . وتشعر أنه لا يأخذ بأي من الفكرتين مأخذاً جاداً . إن هدفه هو استثارة (الغضب والحنق) عند العلماء وإرغامهم على فحص فروضهم . غير أنه لم ينجح ، فلقد تجاهله العلماء .

وبعد وفاته عام ١٩٣٢ نُسيت مؤلفات فورت فيما عدا دائرة صغيرة من المعجبين الذي أسسوا (جمعية فورت) وبدأت كتبه تحظى باهتمام مرة أخرى في أواخر سنوات ١٩٤٠ بعد قضية كنيث أرنون الغريبة بعد مشاهدته لأجسام طائرة مجهولة بالقرب من جبل رينير في ولاية واشنطن . وعندما أصبح الطبق الطائر موضوع الساعة تذكر أحدهم أن فورت قد تحدث عن مثل هذه الأشياء من عدة سنوات . فمثلاً في كتابه (كتاب الملعونين) أدرج تجربة عالم فلك اسمه إ . و . مونندر من مرصد

جرينويتش ؛ ففي نوفمبر (تشرين ثان) عام ١٨٨٢ لاحظ موندر نوعاً من الشفق ووسطه قرصاً دائرياً ضخماً من النور الأخضر يمر عبر القمر . وفي ذلك الكتاب نفسه قال إن هناك (زواراً) كثيرين للأرض بل لقد أدرج أكبر أفكاره شهرة وهي أن البشر هم (ملكية) أمثال هؤلاء الغرباء . غير أن فورت لم يلزم نفسه بأي نظرية من ذات الطابع عند دنكن عن وجود آلهة من النجوم . وموقف فورت بالنسبة للمعلومات التي لديه يمكن وصفها كما لو كان جالساً على سور وأذناه إلى الأرض .

وإن تزايد الحديث عن الأجسام الطائرة والهبوط على القمر وإمكان وجود حياة على الكواكب الأخرى قد جعل أعمال فورت تنتشر فجأة على نطاق أعرض من السابق . لقد أصبح معروفاً باعتباره نبي ما لا يُفَسّر . ويعد هذا سوء تقدير له . وإذا أمكن للعلماء أن يكتشفوا نهائياً أن الأجسام الطائرة (هي) زوار من الكواكب الأخرى أو من أبعاد أخرى فإن هذا يمكن وصفه بأنه اكتشاف علمي ، وفي هذه الحالة يعد فورت مجرد رائد بعيد النظر . ولكن هذا ليس مما يعنيه ؛ إنه بلا رغبة في أن ينضم لركب العلماء . ان كتبه مثيرة للغاية لأنه يناضل لشن نقد أساسي لفكرة العلم كلها . وهذا النقد هو الذي نبحثه في هذا الفصل : الشعور بأنه مهما (يعتقد) العلماء فإنهم مؤمنون بأنهم لا يزالون متأثرين بالفروض (اللاشعورية) المختلفة التي تحول بينهم وبين احراز الموضوعية الحقة . وإذا عبرنا عن المسألة في جملة واحدة فان مبدأ فورت يمكن أن يكون على هذا النحو : الناس الذين لديهم رغبة سيكولوجية للإيمان بالعجائب والمعجزات ليسوا من أصحاب الأحكام المبتسرة على نحو أكبر من الناس الذين (ليست) لديهم رغبة سيكولوجية للإيمان بالعجائب والمعجزات .

وهكذا دعونا نختم هذا الفصل بإعادة طرح حجة فورت الأساسية التي حدث أنها أيضاً هي الحجة الأساسية في هذا الكتاب .

يعد العلم منهجاً لبحث الكون . وأي بحث طيب يبدأ بمحاولة (رسم أبعاده) . إنه يحاول أن يرسم خريطة ذهنية لنوع الكون الذي يعتقد أنه يبحثه (الخريطة التي رسمها بطليموس تظهر الأرض في مركز الكون والنجوم والكواكب تلف كلها حولها) . مثل هذه الخريطة الذهنية تسمى (الأنموذج) .

وعندما نتطلع إلى تاريخ العلم فاننا نرى النماذج تستبدل وتحل محلها نماذج جديدة دائماً ، غير أن هذه العملية ليست آلية كما يتوقع الإنسان ، فالعلماء يبدو أنهم يكرهون أن يتخلوا عن نماذجهم القديمة ويتمسكوا بها بقدر المستطاع عازمين على تجاهل النماذج الجديدة أو استبعادها .

إن لدينا جميعا حاجة أساسية للاعتقاد بأن الكون مكان ثابت ومرتب كما تمّ عرضه في تجربة قام بها الدكتور أنطون هاجوس بجامعة اينسبروك في أوائل سنوات ١٩٦٠ . لقد صنع هاجوس نظارة تجعل كل شيء مشوّهاً ، فالخطوط المستقيمة تصبح منحنية والزوايا تلتوي خارج الشكل والخطوط الخارجية تتآطر بمنشورات من الألوان . والأشياء لا تصبح في الموضع المفروض أنها فيه وتكون هناك حركات غريبة عندما يستدير الإنسان برأسه . ومع هذا عندما يطلب من البعض أن يرتدوا هذه النظارات طول الوقت سرعان ما يتعودون عليها . فالخطوط تنفرد على نحو مستقيم وألوان المنشور تختفي ، وبعد ستة أيام يبدو العالم مرة أخرى عادياً تماماً . وعندما يتم خلع النظارة تبدأ المشقّة من جديد ويقتضي الأمر عدة أيام حتى تعود الأشياء إلى وضعها الطبيعي .

إن البشر يمتلكون آلية تثبت الأشياء تعمل على مستوى نفسي تماماً كما تعمل على مستوى فيزيائي . وهذا يفسر السبب الذي من أجله يستطيعون أن ينجزوا عملاً بطولياً مستحيلاً وهم يركبون الدراجة . هذا يفسر ايضاً السبب الذي من أجله نجد أن الناس الذي اهتزوا من جراء كارثة ـ كزلزال مثلاً ـ يستطيعون أن يبدأوا من جديد . والشخص الذي يخاف خوفاً شديداً من عدم الأمان يكون خائفاً من أن يبدأ الحياة . و (ذلك) هو السبب الذي من أجله نميل إلى تجاهل الأشياء التي تقلب شعورنا الأساسي بالمعتادية والعادية ـ أو ننساها بأسرع ما يكون . إنها ليست آلية لا اختيارية ، بل هي آلية لا شعورية .

فإذا أقررنا بهذا فإن عالماً مليئاً (بالاستثناءات) يصبح أشبه بالكابوس ونحن نستطيع معاً أن نتذكر مصاعب اليوم الأول في المدرسة الجديدة أو التقلبات الانفعالية للمراهقين عندما تنهار ثوابت الطفولة من تحت أقدامنا . وما من إنسان يستطيع أن يقاوم تماماً هذه (الثورات) . غير أن عالماً (بدون) استثناءات هو بدوره عالم قادر على تحويلنا إلى خضروات أو يدفعنا إلى الجنون . ومعروف أن الشعراء يدمنون الخمور أو المخدرات للهرب من مثل هذا (الثبات) .

والمشكلة هي إقامة توازن بين التطرفين . إننا نحتاج إلى عالم فيه من الغرابة و (الجدّة) ما يجعلنا متيقظين ولكن ليس إلى درجة توليد شعور بعدم الأمان . وهنا علينا أن نعترف أن الناس المختلفين يستطيعون أن يواجهوا درجات مختلفة من اللايقين . وكما رأينا فإن معظم العلماء يبدو أن لديهم دافعاً قوياً للتمسك بنماذجهم القديمة . ومقابل هذا نجد أناساً مثل فورت ولثبردج يجدون لذة في العالم ينفجر بالأشياء الشاذة . ومن الحق أن لثبردج قارن اكتشافاته بشعور الثلج وهو ينهار تحت قدميه ؛ غير أنه لم يتأذّ من برودة الماء .

وعلى أية حال فشل لثبردج وفورت في تقديم أنموذج جديد . لقد حاول لثبردج بجدية ولكن لا نجد شيئاً في كتبه يدل على وجود عالم منفتح العقل يبدأ بإعادة تنقيح نظرته للكون . ويعترف فورد صراحة أنه ليست لديه نظرية جديدة عن الكون يقدّمها . واسهامه الأكبر هو أن يكرر مراراً وتكراراً أن نماذج

العلماء غير دقيقة بالمرة . ويمكن أن نوجه إليهما اتهاماً بأنهما ليسا مطلعين بما فيه الكفاية (بمدى) مجال (الخوارق) .

وعلى سبيل المثال نجد أن ملاحظات لشبردج عن تصرف البندول يتضمن أن هناك جزءاً (آخر) من العقل يعرف أجوبة جميع الأسئلة . لقد كتب في كتابه (الإدراك الحسي الخارق : ما وراء الزمن والمسافة) : « بالرغم من أن هذا التأثير قد يكون بالمثل النفس عند يونج فليس يحتمل أن يكون لا شعورياً . وهذا الجزء يبدو في الواقع مستيقظاً للغاية وأكثر معرفة عن العقل » . إنه يعترف بأن يونج هو واحد من الرواد الرئيسيين لهذه المنطقة المجهولة من الوعي ؛ ومع هذا يبدو أنه لم يُعَنِّ نفسه إطلاقاً بقراءة يونج على نحو منهجي ليستخلص ما قاله عن اللاشعور الجمعي . وفي الحقيقة نجد أن دراسات يونج في الشخصية المتعدّدة ـ التي بدأ بها عمله كعالم نفس ـ قد سبقه بها بيير جانيه الذي تفسر أنظاره في بناء النفس كيف أن جزءاً من العقل يمكن أن يكون (لاشعورياً) ومع هذا يكون « أكثر معرفة من العقل » . وإلى أن نبدأ دراسة هذه الآليات الفعلية وكيف ترتبط بالادراك الحسي الخارق والتنبؤ والطاقات الغريبة التي تنتج نشاط الأرواح الشريرة فإننا لن نأمل في بدء انتاج نموذج يرضي العلماء .

وهذا النوع من النقد يمكن أن يوجه إلى يونج . ففي مرحلة مبكرة من عمله أدرك أن اجزاء من العقل تهمه مرتبطة أيضاً بالمعرفة (الخارقة) والنظرة الثانية وما إلى ذلك . ولقد تبين أيضاً أن علم الخيمياء مليء بمفاتيح لهذه المناطق من النفس ، ومع هذا ، بالرغم من أنه كتب ثلاثة كتب كبرى عن الخيمياء ، فإنه لم يبذل أية محاولة لربط اهتمامه بالخيمياء باهتمامه بالخارق ، وذلك لأنه لم تكن عنده أية فكرة عنه . كان يمكن أن يجد مفاتيحه في عمل جوردييف الذي أشار إلى منهجه كشكل من أشكال الخيمياء ؛ ولكن واضح أنه لم يعن نفسه لبحث الأمر .

ولا يوجد سبب لا يجعلنا نأخذ مفاتيحنا أينما نجدها ـ عند لشبردج ، يونج ، جانيه ، جوردييف ، الخيمياء ، التنجيم ، بل وحتى السحر المليء بالطقوس . لهذا دعونا نر ما إذا كان في استطاعتنا أن نقدم ـ على الأقل بعضاً من الأجزاء الناقصة في أنموذج لشبردج(*) .

(*) فصل من كتاب «خفايا الحياة» الذي يصدر قريباً عن دار الآداب، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد .

دار الآداب تقدم
سلسلة
بطولات عربية

○ زنوبيا فارسة الصحراء بقلم فالح فلوح
○ سيف الدولة الحمداني بقلم فالح فلوح
○ معركة الزلاقة بقلم فالح فلوح
○ لبيك ايتها المرأة بقلم سليمان العيسى
○ الحدث الحمراء بقلم سليمان العيسى
○ ابن الصحراء بقلم سليمان العيسى
○ صلاح الدين الايوبي بقلم فالح فلوح

دار الآداب شارع البازركان ، بناية مركز الكتاب ، ص.ب ٤١٢٣ تلفون ٨٠٣٧٧٨